رواية هندية من غويانا.. في زمن تشيدي جاغان:

عن المهمة الكبرى.. اللعنة والانتحار.. والأحلام التي تتحطم أمام قسوة الواقع وخياراته

ابراهيم درويش*

■ هذه رواية مثيرة من ناحية موضوعها، اذ انها تلقي ضوءاً على حياة جماعة مهاجرة من الهند في الكاريبي، وهي اول محاولة لكاتبتها ريحان شاه، التي تعمل ناشطة في مجتمعها، «جمعية التراث الهندية الغويانية»، واهميتها انها ترصد الاوضاع السياسية والاجتماعية لمجتمع غويانا المتعدد الاعراق والديانات، وصورة عن الواقع السياسي في عهد الحاكم تشيدي جاغان، ونشاطات المنظر الايديولوجي المعروف وولتر رودني (1942ـ1980)، الذي كان منظرا يساريا مهما في الحركة الثقافية وترك اثره الواضح على الحركة اليسارية في العالم وعلى الفكرة الافريقية خاصة كتابه «كيف ساهمت اوروبا بتخلف افريقيا» (1972). وريحان شاه التي تنتمي الى عائلة مسلمة تعود في اصولها للهند، وجاؤوا على متن البواخر التي نقلت ابناء الامبراطورية الى الشواطئ الكاريبية للعمل كوسطاء بين المستعمر الابيض، وابناء البلاد، الذين كانوا في معظمهم من ابناء العبيد، الذين نقلتهم بواخر السيد الابيض من قراهم وبيوتهم في غرب افريقيا في الفترة التي تعرف بعهد الاستكشاف الاوروبي. وعلى الرغم من خصوصية تجربة المهاجرين الذين عملوا بصمت، وشاركوا في الحياة الاجتماعية في بلدان الامبراطورية، الا ان ما يميز تجارب الهنود في الكاريبي انها خلت من التوترات، التي تظل موجودة حتى الان وبعد رحيل جاغان، ولكنها لا تقارن مثلا بما حدث للهنود او الاسيويين في اوغندا الذين طردهم عيدي امين من البلاد، بعد ان اتهمهم بالفشل في المشاركة في بناء دولة الاستقلال. «حياة صامتة» هي رواية عن اسرار العائلة في اجواء استوائية، مع اننا عندما نقرأ الرواية من اولها الى اخرها لا نعثر على الفضاء الذي عاشت فيه بطلة الرواية عالية، بقدر ما نطلع على حياة عائلة هندية مهاجرة تعيش لاجيال في غويانا مثل غيرها من الاقليات الهندية التي رحلت او اجبرت على الرحيل مع المستعمرين البريطانيين للعمل والخدمة فيها، فهنا عائلة تقدم خدمات للمجتمع الغوياني، بقالة قريبة من البيت او ما يعرف في بريطانيا ببقالات الزاوية التي كان الهنود يديرونها ويبيعون فيها السلع الغذائية بالمفرق اضافة الى الصحف والمجلات والسجائر وما الى ذلك. عالية تكبر في بيت يحمل سرا كبيرا تحمله الجدة الصامتة، التي ادمنت الصلاة والعبادة والذكر، وطلقت الابتسام منذ «اختفى او قرر الاختفاء» زوجها.

والجدة التي هي صورة معادلة للبطلة عالية كانت تحلم بعالم عادل، عالم بلا فقر ولا الم وحتى لا موت فيه، عالمها هذا جاء من الكتب والمجلات مقارنة مع عالم زوجها، الرجل الذي كان يعمل الحيلة ولا يعدم الوسيلة كي يبحث عن لقمة الرزق، في ظلال اهتمامات الزوجة/ الجدة هنا نعثر على حس اجتماعي اشتراكي، يطلب العدالة لعمال حقول السكر، والعمال السخرة الذين كانوا يطلبون من الجدة الدفاع عن حقوقهم ورفع اجورهم، اما الجد/ الزوج فلم يكن الا راقصا في الحفلات يحب الحياة ويريد الاستمتاع بها مقارنة مع زوجته التي كانت تريد تغيير العالم وتؤمن بتغيير العالم. في هذا العالم المثالي الذي يرى ضرورة تغيير العالم وتحقيق العدالة ودعم البروليتاريا كانت الجدة بقوة شخصيتها وحضورها الطاغي على الزوج معضلة للاخير، فالرجال البسطاء، العمال كانوا يرون ان المرأة لا تقود. كل الكتب الدينية، السماوية وغير السماوية تؤكد ان الرجال خاضها الرجال دفاعا عن النساء، ويبدو ان هذا كان وراء عزلة الجد الاخيرة الذي كان الناس يعيرونه بزوجته التي يحتاجونها ولكنهم حريصون على ادامة ما يرونه الاطار الاجتماعي في سلمه وعاداته. في يوم من الايام، يعلق الجد الذي كان نجم حلقات الرقص والغناء، ادواته على الحائط، وتتوقف الشناشيل هذه عن الحركة الا من صوت الريح التي كانت تحركها لتعود في الايام الحارة للصمت.

في صباح استوائي يعقد الجد عقدة حبل حول عنقه ويشنق نفسه، تتحرك الاجراس مرة او مرتين ثم تتوقف عن الحركة للابد، لقد انتحر الجد، والانتحار في الاسلام «وصمة عار لا تمحى» لانه تعبير عن اليأس والمؤمن لا يقنط من رحمة الله، لكن «مولانا» الشيخ جاء للجنازة عطفا وشفقة على العائلة التي تحول بيتها الى مركز للفرجة، وكأن الموت انتحارا له رهبة ورعب غير الموت «العادي».

منذ موت الجد، تتمسك الجدة بالصمت وتغيب البسمة عن وجهها وتتمسك بالدعاء والذكر والصلاة، تصبح صلوات الجدة بالعربية حبلا سريا، او حبلا طويلا يربط الفتاة عالية التي تعيد ولادتها البسمة الى جدتها، مع تراث طويل هو الاسلام والعربية. الاسلام بالنسبة للعائلة هو سياق ثقافي، عادات وتقاليد، تصبح الاعياد فيه مناسبة لاجتماع العائلة وتناول الطعام واستجرار الذكريات.

قصة انتحار الجد، جاءت لشعوره بالنقص وفقدان الرجولة بعد ان قامت زوجته/ الجدة في ليلة بالقاء خطبة امام الجماهير، اشعلت خيالهم، فيما فشل الجد بالمهمة، مع ان الاخير كان دائما مع الجماهير، يتحدث اليهم عن المادية الديالكتية والعدالة الاجتماعية. شاه تريد وضع سياق تاريخي للموت، الذي تلقيه الجدة «عليهم»، الجماهير، او السياسة، التخلف وغياب الوعي، ولكن السياق هنا هو عن مشاركة الهنود مثل غيرهم في الكفاح ضد الاستعمار الذي حملهم معه.

عالية، هو الاسم الذي اختارته الجدة لحفيدتها، وعالية هي الفتاة التي تدمن سماع قصص وحكايات جدتها. تكبر عالية ولا نعرف شيئا عن مدرستها وعالمها الذي تتحرك فيه، ولا نكتشف عواطفها نحو الجنس الاخر الا في مرحلة متقدمة من الرواية ـ فكأن عواطفها وشوقها ليسا مهمة، ربما لانها كما تصف نفسها بغير الجميلة، والقصيرة، ولكن ما يهم هنا انها ذكية، حيث تحصل على منحة للدراسة في انكلترا، والاقتصاد تحديدا في جامعة لندن، واختيارها لهذا الفرع من فروع المعرفة هو تأكيد لرؤيتها عن العدل الاجتماعي.

في محاولة لرسم المدى الزمني او التاريخي الذي تدور فيه احداث الرواية، ربما نضع هذا في سياق فترة حكم الرئيس المعروف.. انها رواية تدور في فترة السبعينات من القرن الماضي، او بعدها بقليل، فعالية التي تروي قصة جدتها وتستعيد من خلالها صور الماضي والحاضر لا تشير في مراحل تكوينها، ولا حتى زمنها الذي عاشته اية معاناة من العنصرية او حتى لا تتحدث عن شقوق في جدار المجتمع الغوياني الخليط من السود والملونين والبيض وغيرهم.

نعرف ان غويانا البريطانية تعيش فيها اقلية هندية مؤثرة، تماما مثل سورينام او غويانا الهولندية التي حمل اليها الهولنديون اعدادا كبيرة من المسلمين والهندوس. ولكن عالية او الكاتبة شاه لا تشيران لوجود مشاكل عرقية واجتماعية، فمحل والدها كان مفتوحا 24 ساعة ويقدم خدماته للجميع. وعندما كانت تحضر للسفر الى انكلترا، عقدت لها جدتها حلقة ذكر صوفية كي تحصنها من الآتي، مع ان العائلة غير متدينة وتتعامل مع الدين من خلال طقوسه الاجتماعية والثقافية.

عندما تسافر عالية الى انكلترا، تواصل العيش وكأنها في غويانا، فهي غير معنية بالفضاء الجديد والصداقات التي كونتها في الجامعة، لا تتحدث عن الحياة ونمطها، لا نرى لندن المدينة في معالمها وحدائقها، ولا نعرف عن سكان المدينة التي ظلت في مركز العالم الا السيدة ويكام صاحبة نزل الطالبات، وعالية تظل تلك الفتاة المثالية التي تحلم بتغيير العالم، ومواصلة «الهوس» المزروع فيها وهي التي تربت في احضان جدتها وحكاياتها لتغيير العالم. ولكن استاذها البروفسور روبرتس يقول لها ان تغيير العالم يحتاج الى دراسة، مرحلة جامعية اولى، ماجستير ثم دكتوراه، وبعدها خبرة عملية، اي العمر كله.

عالية المسكونة بهاجس البيت تشعر انها مسكونة بمهمة جاءت اليها بالوراثة من جدتها ولهذا تتجنب الكتابة اليها، على الرغم من الحاح والدتها عليها، فكلما حاولت الكتابة تهرب منها الى قراءة المانفستو الشيوعي، او نظريات مالتوس او كينز وغيرهم من آباء الدراسات الاقتصادية. ولكن عالية لم تكن قادرة على التخلص من حس الالتصاق بجدتها، فقد تربت في حضن الاخيرة، فالجدة بحسب رواية الام «كانت من اجل القراءة والحديث والنقاشات، كانت تكتب رسائل، وبعدها كانت تحضر الرسائل والكتب عليها طوابع غريبة من اماكن اجنبية»، وهي لم تكن قادرة على التخلص من قصص المعاناة والعذاب في حقول قصب السكر وحقول الارز. هذا المنحى اكد لعالية انها فتاة بمهمة خاصة لانقاذ العالم، فالرحيل الى انكلترا للدراسة لم يكن فرصة لرؤية الاشياء الجديدة ولكن للتحضير والاعداد، ومن هنا لم تكن لندن كمكان للمتعة والفسحة وتوسيع الافق ذات اثر او علاقة بعالية، فهي كانت قريبة من استاذها الدكتور روبرتس الذي كان متعلقا بغليونه ذي التبغ المعطر، وتبحث عن الخبرة العملية عبر الانضمام لمنظمة اسمها «الاغاثة العالمية» وهي جمعية تعمل على تقديم الخدمات للدول الفقيرة، ويعلق روبرتس قائلا: يمكن ان تتدربي معهم، وربما حصلت على وظيفة. في اثناء ذلك تثير الرسائل القادمة من غويانا عن توتر الاوضاع في ظل حكم تشيدي جاغان (1918 ـ 1997) الذي جعل الحياة تعيسة لكل السكان، وتشير الى رودني كينغ الذي يواجه الديكتاتور «كابكا»، الذي منع اعياد الميلاد لانها اعياد يحتفل بها السيد الابيض السابق، ولان عيد الميلاد هو عن الثلج وبابا نويل، الذي يخترق الثلوج على متن عربة تجرها خيول الأيائل حاملا هداياه للاطفال، ولا يوجد في غويانا، ثلج. وفوق هذا قام بنقل بيته الى مركز الحاكم القديم الكولوني الطابع، وصار بيته يعرف باسم «بيت القرد».

تتذكر عالية في ظل هذا السفينة التي حملت اجدادها الى غويانا وكيف كانوا يعملون في حقول القصب في ليونارا وكيف ان دم الثورة والتحدي مزروع في العائلة. ولكنها تشير الى الاخبار السيئة التي صارت ترد اليها من الوطن البعيد، عن التوترات العرقية بين السود والهنود، كل هذا بفعل سياسة الحاكم الجديد.

في الوقت الذي كانت فيه عالية تحضر للعودة للبيت/ الوطن تتعرف على شاب من غويانا، هاجر اهله لبريطانيا في الخمسينات من القرن الماضي عندما فتحت انكلترا ابوابها للمهاجرين من الكاريبي، او ما صار يعرف باسطورة السفينة «ويند راش»، حيث كانت بريطانيا الخارجة مثخنة من الحرب العالمية الثانية بحاجة لليد العاملة.

هذا الشاب اسمه دين محمد يعقوب، ويعمل في قطاع المصارف، عندها تنسى الفتاة المسكونة بحس «المهمة» نفسها، وتسافر معه، لاول مرة منذ اربعة اعوام هي طول اقامتها في بريطانيا لخارج لندن بل خارج البلاد، الى باريس وامستردام، حيث تصبح فتاة عادية مثل غيرها من ابناء جيلها اللواتي يحلمن بالخروج من مجتمعاتهن لمشاهدة العالم. مع دين، تزور بلد شكسبير ستراتفورد اون افون، وشاطئ برايتون، وستونهينج اخر مظاهر الوثنية في بريطانيا. ويقضيان معا اياما في باريس وامستردام، في فنادق رخيصة او متواضعة. ويتزوجان بعد ذلك، حيث تنجب عالية ولدين جميلين، عريق، وعمر، وتنشغل عالية بتربية الابناء والسفر، الى نيروبي ونيودلهي وغيرها من عواصم دول العالم الثالث، كما ينشغل دين محمد بتعليم ابنائه لعبة الكريكيت المعروفة التي يفتح ابناء شبه القارة الهندية عيونهم عليها. وتصف شاه، تطور موهبة ابنيها في اللعبة في صفحات طويلة، بشكل ذكرني بمذكرات الكاتب الكاريبي الاخر سي اس لويس الذي عمل مراسلا رياضيا في بريطانيا في الثلاثينات من القرن العشرين والف اول رواية كاريبية نشرها في لندن «زقاق النعناع»، والفرق بين وصف لويس في «خارج الحد» وهو مصطلح يستخدم في الكريكيت ووصف شاه، ان الاول كان مراقبا عميقا وكان يكتب في ظروف العنصرية التي عانى منها الملونون في بريطانيا. ولويس كان موضوعا لهجوم جائر من الحائز على جائزة نوبل، الترينيدادي الاصل فيشا نايبول في كتابه «طريق في العالم». تنسى لفترة عالية مهمتها الكبرى وتصبح مثل ما توقعت عمتها خديجة، التي تموت وعالية في المنفى الاختياري، وهي ان مكان المرأة في البيت، تربية الاطفال والطبخ. لكن ما يفاقم مشاكل الفتاة الذكية والطموحة ان زوجها صار بعيدا عنها، غير قادر على التقدم في عمله، وصارت تشعر بالعزلة والتهميش في بريطانيا، وتصاب بانهيار عصبي. تقرر العودة لغويانا، وتجد ان الوضع لم يتغير عندما تركته او ما اوضحته رسائل اهلها اليها.

النظام الديكتاتوري لا زال قائما مع جاغان مات. وبعودتها الى بلدها، تعود بسيرة عملية جيدة وشهادات قوية، حيث تجد عملا في وزارة المالية. ولكن سؤال المهمة الكبيرة يظل عالقا، فالبطلة هنا تعاني من عزلتها الخاصة، فهي ليست هنا او هناك، هي معلقة بين مثاليتها وواقعية العالم الذي تعمل فيه، وخلف السرد الجميل نعثر على درجة عالية من السنتمنتالية، وفيها شاعرية خاصة عن المكان، خاصة في وصفها لرحلة العودة الابدية لجدتها، في الصفحات الاخيرة من الرواية، وبوفاة الجدة «ناني» ينتهي حلم بناء عالم جميل، حيث تهب نسمات باردة، تمتلئ السماء بغيوم، وتتبعثر او تتعثر في طريقها العلوي للسماء. عندما سئلت الجدة عن معنى اسم «عالية»، قالت انها من العلو والسمو.. ومع رحيلها، ينتهي قلق الجدة من تكرار درس التاريخ او «اللعنة» التي جلبتها القراءة والكفاح من اجل العدل على العائلة..

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

A Silent Life
By:Ryhaan Shah
Peepal Tree Press
Leeds - England / 2005

مكتبة الإسكندرية تعد لمؤتمرها الثالث حول المخطوطات الشارحة

القاهرة ـ «القدس العربي» ـ من محمود قرني:

ينعقد بمكتبة الإسكندرية في الفترة من السابع إلى التاسع من آذار (مارس) المقبل مؤتمر «المخطوطات الشارحة» الذي سيحاضر فيه على مدار أربع عشرة جلسة حوالي واحد وخمسين باحثا وأستاذا من مختلف جامعات العالم. وسوف يشهد حفل الافتتاح تكريما على جائزة «سارتون» في تاريخ العلوم، وسوف يتحدث في الحفل الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية والدكتور يوسف زيدان مدير مركز المخطوطات والمكرم الدكتور عبد الحميد صبرة الذي سوف يتحدث عن مفهوم المخطوطات الشارحة. بالإضافة إلى ذلك سوف يتم افتتاح معرض المخطوطات الشارحة الذي سوف تتزامن فعالياته مع وقائع المؤتمر.

وقد صرح الدكتور يوسف زيدان المشرف على التنظيم والإعداد بأن المؤتمر يأتي امتدادا للمؤتمرات الدولية التي نظمها مركز المخطوطات بغية الكشف عن الجوانب المجهولة والمنسية والمهملة في التراث العربي، ويمثل خطوة جديدة بعد مؤتمر المخطوطات الألفية الذي انعقد في ايلول (سبتمبر) 2004 والمخطوطات الموقعة الذي انعقد في نيسان (إبريل) 2005. ويقول زيدان ان المؤتمرين كشفا عن جانبين مهمين من جوانب تراثنا المخطوط الموزع على أرجاء العالم أو بالأحرى المنزوي في الخزانات الخطية في العالم.

ويضيف زيدان: كما حرصنا في المؤتمرين السابقين على إقامة معرض لهذه المخطوطات بغية استحضارها أمام أعين أهل الزمان في محاولة لعبور الهوة الفاصلة بين ثقافتنا المعاصرة وجذورها التراثية. ويرى زيدان أن المؤتمر الجديد يطرح محاور غير نمطية للبحث التراثي، مداخل تنزع إلى الارتقاء بالتراث عبر عمليات مختلفة مثل الفهرسة، التحقيق والدرس المتخصص كذلك السعي إلى عمليات الاستكشاف والفهم والمثاقفة وهو – حسب زيدان – طموح المؤتمر.

ويشير مدير مركز المخطوطات إلى أن مصطلح «المخطوطات الشارحة» سوف يكون هو موضوع النقاش الأساسي في أغلب الندوات ويضيف هنا موضحا: يعتقد كثيرون أن الشرح بعامته، يقل أهمية ومرتبة عن المتن المشروح، فهو في اعتقادهم، كتابة من الدرجة الثانية، كتابة هامشية، ومن هذه الزاوية، تكون الحواشي التي توضع على الشروح، كتابة من الدرجة الثالثة، أو هي: هوامش الهوامش، ومن ثم بالمؤلف الذي وضع المتن هو الرائد، وهو الجدير بالاعتبار، أما الذي يضع على المتن أعمالا فهو لا يستحق عندنا وصف المؤلف وإنما ندعوه الشارح وفي الدرجة الثالثة، أي الحاشية، نسميه في المصطلح التراثي «المحشي» فإن كتب كاتب على الحاشية كتابة رابعة على هيئة تعليقات أو تعقيبات فهو المعقب، ولا ننسى هنا أن كتابة التعليق أو التعقيب أو الاستدراك، تتلوها أحيانا كتابة خامسة من حيث المرتبة وتسلسل الأهمية، هي كتابة «الطيارات» التي تصادفنا على هيئة أوراق صغيرة بين صفحة المخطوطات، وغالبا ما تكون مكتوبة بقلم دقيق وبأسلوب موجز، ولا تزيد في معظم الأحوال عن فقرة واحدة، وهو ما يسمح بوضعها بين أوراق المخطوطة، سواء منفصلة أو مجلدة مع المخطوطة إن أُعين تجليدها بعد تدوين هذه الطيارات المحتوية على ملاحظات تفصيلية تخص موضعا بعينه من المخطوطات.

ويضيف يوسف زيدان: إننا على هذا النحو لدينا خمس مراتب للكتابة: المؤلف وهو المتن، الشارح «الشرح»، التفسير، التحرير، المحشي، أو الحاشية أي شرح الشرح، المعقب أو المعلق الذي يستدرك، والمدون الملاحظات «الطيارات»، ويقول زيدان انه ساد الاعتقاد أن المؤلف رائد والآخرين تابعون له، ومن هنا وإذا أردنا التقليل من شأن القرون الأخيرة من تاريخ الثقافة العربية الإسلامية وصفناها بأنها قرون الشرح والحواشي مقابل أزمنة التأليف والإبداع العلمي في القرون الأولى، ويتساءل هنا: هل ترانا وجدنا القرون الأخيرة مليئة بالشروح والحواشي فوصفناها بقرون التخلف؟

وهنا يجيب زيدان: المسألة برمتها تحتاج لإعادة نظر، من زاوية لا ترى في الشرح بالضرورة نصا هامشيا ثانويا، ولا ترى بالضرورة أن كل كتابة تالية هي متأخرة من حيث المرتبة عن الكتابة الأسبق، وإلا، فلطالما صادفتنا شروح لا تقل أهمية عن متونها، من ذلك مثلا شروح العلامة نصير الدين الطوسي، على المتون الرياضية والفلكية التي دونها علماء اليونان وعلماء الإسكندرية، وهي شروح جعلها الطوسي بعنوان التحريرات فترك لنا: تحرير المجطي لبطليموس، تحرير أصول الهندسة لإقليدس، تحرير كتاب الكرة والأسطوانية «لأرشميدس»، تحرير كتاب الأكر لمنالاوس وتحرير كتاب الأشكال البسيطة والكرية لبني موسى بن شاكر، ومع مثل هذه الشروح أو التحريرات التي وضع منها الطوسي أربعة عشر تحريرا، لا يجوز النظر إلى نصير الدين الطوسي باعتباره كاتبا ثانويا، فقد كان الرجل يعيد بناء العلم القديم بكامله، ويسعى لتحريره من أخطاء يرى أن سابقيه وقعوا فيها، وهنا يصير نصه «الشارح» في أهمية المتن المشروح، وربما يتجاوزه في بعض المواضع أهمية.

ومن هنا يرى يوسف زيدان أن الشروح التي دونها الأطباء العرب خلال ألف عام من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية على مؤلفات أبقراط وجالينوس يراها مرايا تعكس على صفحتها طبيعية المعرفة الطبية في عصر هذا الشارح أو ذاك، الذي هو بالضرورة: قامة طبية عالية في زمنه. ومن خلال هذه الشروح يمكن التأريخ لتطور علم الطب في تراثنا العربي.

ويستطرد زيدان هنا مؤكدا أن المخطوطة الشارحة بهذا المعنى ليست نصا ثانويا لكاتب من الدرجة الثانية، هذا من حيث المضمون، ومن حيث الشكل أو ما سيسمى الوعاء فللمخطوطة الشارحة خصوصية وأهمية بحسب نوع الشرح، فهناك الشرح الممزوج، والشرح بطريقة «قال، أقول»، الذي يمكن منه استخراج المتن في حالة ضياعه، والشرح محل المرام المؤلف الأول. ويضيف زيدان أنه من أشكال الشروح: التفاسير، وكتب الغريب «غريب القرآن، غريب الحديث» والشروح النمطية للأشعار كعمليات التثليث والتخميس والتسبيع للأبيات.. بالإضافة إلى عديد من أنماط المخطوطات الشارحة التي ستلقي بحوث المؤتمر عليها مزيدا من الضوء.

أما عن المؤتمر فيقول زيدان انه سوف ينقسم إلى خمس محاولات أولها حول طبيعة العلاقة بين النصوص التراثية ومراتبها الموصوفة بألفاظ المتن والشرح والحاشية والتعليق، وثانيها بحث أثر المخطوطات الشارحة في الامتداد المعرفي عبر قرون الحضارة الإسلامية بإبقاء النص حيا عبر عمليات الشرح بمستوياته المختلفة وبأغراضه المتنوعة، ودلالة انتشار الأنماط المختلفة للنص الشارح، في فترة زمنية معينة وفي علوم تراثية بعينها كما هو الحال في انتشار شروح فصول أبقراط في القرنين السابع والثامن الهجريين. والمحور الثالث للمؤتمر يدور حول المخطوطات الشارحة باعتبارها وعاء معرفيا ذا قالب خاص من حيث الشكل قد ينساب فيه الشرح متحلقا حول النص المشروح.

والمحور الرابع يدور حول دراسة الأشكال غير النمطية للمخطوطة الشارحة، وتنوع المداخل الشارحة للنص، أما المحور الخامس فيدور حول استعراض واستكشاف لبعض نماذج المخطوطات الشارحة بدءا من هذه التي تقع في مجلدات كبار او تلك التي وردت في مخطوطة بعينها على هيئة طيارات لا نجدها في مخطوطة أخرى من مخطوطات الكتاب ومقارنة المخطوطات الشارحة في الثقافة العربية بالنص الشاسع في ثقافات أخرى قديمة ومعاصرة.

الفتن الناريّة

كريم ناصر*

السديم الليليّ

ـ لم يفتخر القسطاسُ مباهياً بمناقبه ـ
لقد تطوّتَ الشَجرةُ كحيّةٍ سعيدة،
عندما نشفَتِ المياهُ في الحَقل.
كالأوتاد
انفلقنا فيَ سديمِ ليلنا الصخّاب ذاك،
لأنّنا لم نجدِ الأميراتِ ذات البرانَس.

فضاء

كالضوء المنعكس من القنطرة،
سنكشطُ صقيعَ أقدامنا، ثم نُحصي أنفاسَ الثعلب.
وحالما تزهر النُجومُ في فناءِ الباحة
سنزاول البحثَ عن طيُورنا
كما لو كنّا لا نفارقُ فضاءَ الزهرة.

البرج ينهار

يا لطفولتنا البريئة..
لقد كنّا نُقلّدُ تغريدَ الطُيورِ (عند مُفترقِ الطرق)
مُصعّرينَ الأحراج
لكيما نلتقط العفاريتَ من السلال.

على الشواطئ
انكسرت جرارُنا،
في الشدّة تخلّى
عنّا الأصدقاء،
حين كانت دماؤُنا
تنزفُ بإفراط
حين قُصّتِ الضفائرُ
بقسوةٍ بالغَة.

مهلاً مهلاً
الحصان يحبو على التلّة،
والبُرج ينهارُ على رؤُوسِ النظّارة.

الفتن الناريّة

إنّ السيُولَ تقتلعُ منازلنا،
لكنّ ذلك يكفي..
يكفي لننهض بألف فكرة وفكرة
عندما عبرَ الوشاةُ الجسرَ حاملينَ فؤُوساً تهذي،
ممهّدينَ للرياحِ العذرَ لتملأ أفواهنا،
مُشعلينَ الفتنَ الناريّة.

السلوقيّ

لمّا مضينا نبحث عن الزوارق
(طلباً للنجاة)
كانت أشجارُ اللوزِ تتساقط على الأرض..
وإنّ كلابَ الحرس
انقضّت علينا..
الظاهر أنّ سلُوقياً كان يتوسّطُ الساقية.

ماذا جرى؟

مثلما تقرع الرياحُ قلبَ اللُجّة
ركضَتِ البهائمُ بخطىً مبعثرة،
ماذا جرى؟
فلنْعبرِ الجُسورَ قبل أن تشجَّ الصواعقُ رُؤُوسنا.

الحسناء

المرأة الفضيّةُ تقرعُ الذاكرة
فتنطُّ كمَويجات نهر هائج،
تلك الحسناء يومَ رأيناها
قلنا هذه هي الشمس التي في فضاءِ المدرسة.

أحلام المدينة

في الحدائق ستتناسلُ الأزهارُ
مهما وطئتها أقدامُ المارّة..
حتى النوافذ ستسدلُ ستائرَها، لطردِ الغربانِ في اللحظةِ المناسبة.
لقد صرخنا حتى بحّت أصواتنا
صرخنا عالياً..
ونحن نهرعُ إلى فراخِ العصافيرِ المذبوحة
في أسافلِ الأشجار.
في الحدائقَ ستشرقُ الشمس،
وتسقطُ الغُيومُ في الهُوّة.

الديناصور

الطريقُ التي سلكتها لم تعدْ
رحبةً فتيّة،
الطفلُ الذي قتلتهُ يشرعُ
هاباً
كريحٍ شديدةٍ تذبحُ
الصدر..
هكذا اختلطَ
عويلك بقعاقعِ
الحديد،
تمضي متجلّداً عصياً دون
أن يرحمكَ أحد.

* شاعر من العراق

كاتب نمساوي: الغرب ورث نمطا فكريا مشوها يعتبر الاخرين «برابرة»

القاهرة ـ من سعد القرش:

في رحلته الممتدة من النمسا الى دول الشرق اكتشف ليوبولد فايس تلك المناطق كما صادق حكاما شكلوا مستقبل بلاد لم تكن حدودها قد رسمت على الخرائط مثل محمد على جناح وعبد العزيز ال سعود. لكن الاهم بالنسبة لفايس أنه أعاد اكتشاف نفسه وامتلك من الجرأة ما دفعه الى اعادة النظر في ثقافته قائلا ان الفكر الاوروبي أصابه «التسمم» في كل ما يخص العالم الاسلامي منذ الحروب الصليبية التي تركت أشباحا وظلالا تحوم في الغرب حين يتعامل مع الاسلام برؤية «تحمل بقايا ذلك الشبح العنيد».

فايس (1900ـ1992) هو ابن الحضارة الغربية التي يقول انها ورثت نمط الفكر اليوناني ـ الروماني القديم الذي كان يقسم العالم الى اغريق ورومان في جانب وبقية الامم في جانب اخر باعتبارهم «برابرة... ذلك النمط من التفكير انتقل الى الفكر الغربي وتأصل به حتى انهم أصبحوا عاجزين ولو نظريا عن قبول فكرة وجود قيم ايجابية في ثقافات أخرى تقع خارج محيطهم الثقافي والفكري والمعرفي».

وأضاف في كتابه (الطريق الى مكة) أنه طبقا لتلك الرؤية «المحدودة لتاريخ العالم فان أية حضارة غير أوروبية يحكم لها أو عليها بمقدار تأثيرها على مصائر أهل الغرب فقط. وهكذا لم يكن تاريخ العالم وتعدد ثقافاته أكثر من مجرد امتداد لتاريخ الغرب».

وكتب فايس هذا العمل عام 1953 «بعد غياب واغتراب داما أكثر من 25 عاما عن عالم الغرب الذي أنتمي اليه... كان تحولا واعيا واراديا عن ثقافة وفكر معين تشبعت به من مولدي الى شبابي الى ثقافة أخرى».

والكتاب الذي ترجمه المصري رفعت السيد على وصدر بالعربية عن المجلس الاعلى للثقافة بالقاهرة يقع في 448 صفحة كبيرة القطع. وهو أقرب الى سيرة ذاتية وفكرية يروي فيها تجربته وتحولاته التي أشار اليها في المقدمة قائلا (/أنا مسلم الا أنني أنتمي الى الغرب».

ولد فايس بالنمسا لابوين يهوديين وعمل مراسلا لعدد من الصحف الاوروبية في منطقة الشرق الاوسط وايران والهند واختار لنفسه اسم محمد أسد بعد اسلامه عام 1926. وكان مشاركا في أحداث شكلت بعض ملامح المستقبل لكثير من هذه الدول ثم أصبح بعد اعلان استقلال باكستان عام 1947 مندوبا لها لدى الامم المتحدة. وقال فايس ان المؤرخين والمفكرين الاوروبيين ظلوا منذ عصر الاغريق والرومان ميالين الى رؤية تاريخ العالم من وجهة نظر وبمصطلحات وخبرات ثقافية غربية وانه «لابد بالطبع أن تخلق تلك النظرة الضيقة منظورا مشوها».

وأضاف أن الاوروبي والامريكي اعتاد على قراءة ما يخص الغرب في حين لا تحظى شؤون العالم وحضاراته باهتمامه وهذا جعله «يوقن بأن التجربة الحضارية للغرب ليست فقط الافضل والاسمى بل انها فوق أي قياس مقارنة بحضارات العالم الاخرى. وهكذا يؤمن المواطن الغربي أن نمط الحياة لديهم هو النمط الوحيد الصالح والملائم للحياة... امنوا أن حضارات الاخرين ليست الا خطوات متعثرة على مسار التحضر الذي قطعه الغرب معصوما من أي خطأ».

ونوه الى أن الغرب لم يتنازل عن شعوره بالتفوق الحضاري لكنه «فقط أصبح أكثر تسامحا. ذلك التسامح لم يشمل نظرته الى الاسلام بقدر ما شمل الحضارات الشرقية الاخرى التي تقدم نوعا من الجاذبية الروحية للغرب الجائع روحيا وهي توجهات روحية بعيدة كل البعد عن جوهر التقدم الغربي ولا تشكل أي تحد للقيم الغربية».

وفسر ذلك قائلا ان الدارس الغربي للهندوسية أو البوذية يظل دائما على وعي بالمسافة والاختلافات الجوهرية بين عقيدته وتلك العقيدة ولو أعجب ببعض أفكارها فلن يفكر في اعتناقها «لذلك يدرس ويقارن تلك الديانات باتزان ودون خوف بل أحيانا بتقدير وتعاطف. أما حين يصل الامر بالباحث الغربي لدراسة الاسلام ـ الذي يعد هو الاخر غريبا على القيم الغربية كالهندوسية والبوذية ـ نجد أن تلك الموضوعية تتوارى وتختل وتشوبها انحيازات عاطفية ومعنوية».

وأرجع سبب ما اعتبره عداء تاريخيا الى الخلفية النفسية للعلاقة المبكرة بين الغرب والاسلام وتحديدا الى فترة الحروب الصليبية التي كان لها «أقوى تأثير جمعي على حضارة كانت قد بدأت تعي ذاتها. كانت الحروب الصليبية أول وأنجح محاولة مبكرة في رؤية أوروبا لذاتها وقد توحدت تحت راية ثقافية واحدة ولم تمر أوروبا بتجربة مماثلة لا قبلها ولا بعدها. لقد خاضت الامم الاوروبية تلك الحرب متفقة لاول مرة على هدف واحد».

وتأسست الحروب الصليبية على خلفية خطبة شهيرة للبابا أوربان الثاني بمجمع كليرمون بجنوب فرنسا في نوفمبر تشرين الثاني 1095 قال فيها «يا له من عار لو أن هذا الجنس الكافر المحتقر عن حق المجرد من القيم الانسانية وعبد الشيطان تغلب على شعب الله المختار» ودعا لاسترداد «الارض المقدسة» من المسلمين. وفي العام التالي بدأت الحملات الصليبية (1096ـ1292). وقال فايس ان أوروبا انذاك كانت تموج بشعوب وقوميات لا يربطها رابط الا اعتناق المسيحية الى أن حث البابا أوربان الثاني على خوض الحرب ضد «الجنس الشرير. أعلن دون أن يدري ميثاقا مشتركا للحضارة الغربية... واجتاحت موجة مسمومة كل أرجاء القارة الاوروبية... أبرزت تلك الحروب الاسلام بوجه شائن مزيف في عيون الشعوب الاوروبية».

وشدد فايس على أن الخسارة الفكرية الناتجة عن تلك الحروب هي الكبرى والاكثر أهمية حيث تم «تسميم الفكر الاوروبي ضد العالم الاسلامي عبر التصوير الارادي المشوه والكريه لتعاليم الاسلام ومثله العليا. فحتى يستمر الزخم الداعي لاستمرار الحرب الصليبية دمغوا الرسول (محمد) بأوصاف كريهة وادعوا أنه معاد للمسيح ووصفت ديانته بأشنع الاوصاف وأنها منبع الشرور والانحراف والشذوذ... دخلت تلك الافكار الشائهة عن الاسلام الفكر الغربي ولم تخرج منه بعد ذلك أبدا. أشباح وظلال الحروب الصليبية مازالت تحوم في الغرب حتى اليوم ومازالوا يتعاملون مع الاسلام برؤية تحمل بقايا ذلك الشبح العنيد».

وروى بعض حصاد ذلك الميراث قائلا انه عندما كان في فلسطين عام 1922 «تأكدت من السياسة المراوغة ذات الوجهين التي تتبعها الادارة البريطانية فيما يخص الصراع العربي ـ الصهيوني».

ووصف فايس وعد بلفور بأنه «مناورة سياسية في غاية القسوة والوحشية».

وأصدر وزير الخارجية البريطاني ارثر بلفور (1848ـ1930) في الثاني من نوفمبر كانون الثاني 1917 وعده وهو عبارة عن رسالة قصيرة الى اللورد روتشلد أحد زعماء الحركة الصهيونية انذاك يقول نصها.. «ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يكون مفهوما بشكل واضح أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الان في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى. وسأكون ممتنا اذا ما أحطتم اتحاد الهيئات الصهيونية علما بهذا التصريح».

وقال فايس انه قابل عام 1923 في فلسطين الام